مجلة مقامات
EISSN 2253-0363: / ISSN : ISSN2543-3857
المجلد 05 / العـدد: 01 (2021)
ص: 09- 36

جوانب من نشاط النحاة الجزائريين منذ القرن التاسع الهجري.

Aspects of the activity of Algerian grammarians since the ninth century AH.

الباحث(ة)	مؤسسة الانتماء	البريد الالكتروني
د. بلحاج جلول Belhadj Djelloul	المركز الجامعي نور البشير البيض	Djelloulogbi46@hotmail.com

الملخّص: من المؤكد أن النحاة الجزائريين قد اشتغلوا بالدرس النحوي أسوة بغيرهم في المشرق، وإذا كانت المصادر والوثائق لا تسمحُ بالتأريخ لذلك، فإن القرونَ التالية خصوصا التاسع منها يسمحُ وبشكل مكثَّف بالدلالة على الجهود المبذولة في التحصيل والتدريس والتأليف زيادة على ضرورات الرحلة العلمية، كما يسجل الباحث التعاطيَ المستمر مع الإنتاج النحوي سواء زمنَ الموسوعات اللغوية أو زمن المقررات الدراسية؛ حيث يستمر تدريس النحو العربي، ويُتوسع فيه بالتأليف المستقل أو المبني على جهود مشرقية أو مغربية أو محلية، وهو كثير كما في المنجز على الأجرومية تحديدا؛ بل إن تلك الجهود وجدت لتستمرّ زمانا خارج الوطن، مع تحصيل الأسانيد العلمية المتصلة بفنّ العربية. وأختم بالإشارة إلى أن النحوي هنا مراد به المشتغل بالنحو تدريسا وتأليفا مع شرط التمكن من ذلك، لا خصوص من له اختيارات نحوية...

الكلمات المفتاحية: النحو؛ الدرس؛ التأليف؛ الرحلة؛ الجزائر.

key words: It is certain that Algerian grammarians have worked in the grammatical lesson similar to others in the East, and if the sources and documents do not allow history for that, however, the following centuries, especially the ninth of them, allow intensively to indicate the efforts exerted in the collection, teaching and writing in addition to the necessities of the scientific journey. The researcher records the continuous engagement with grammatical production, whether during the time of linguistic encyclopedias or academic courses, as the teaching of Arabic grammar continues and expands on independent writing or based on the efforts of the East, Moroccan or local, which is many, as in the Ajromiya. Rather, these efforts were found to last for a time outside the country, with the acquisition of scientific evidence related to the art of Arabic.

Key words : grammar , lesson ,composition, journey.

1 مقدّمة: ارتبطت العربيةُ بنصوص الوحي وهي تدخل المغرب الإسلامي، وربما كان من أسباب تأخّر الفتح حاجزُ اللغة المختلفة، وما يكون قد سبق إلى البربر من اللسان الخاص، ولا يخفى أن الدخول في الدّين الجديد كان من مقتضياته التمكنُ من العربية باعتبارها وسيطا أساسيا، كما لا يخفى أيضا أن العربية لم تشترط التخليَ عن غيرها. إنّ الذي حدثَ أن الاهتمام تركز وبشكل كبير ومكثّف أيضا على لغة القرآن والحديث والنصوص الفقهية، والحركة الثقافية عموما.

كان من جملة النتائج حصولُ ذلك الاشتغال الواسع والمستمر بالعربية أصولا وفروعا، قضايا ومسائل، وحدثت لذلك الرّحلة إلى المشرق بعد قدوم أقوام منه إلى المغرب أعقاب الفتح، وتمّ تبادل الدرس النحوي فترسخ ذلك بشيوع حركة التدوين الواسعة، وهو ما سمح بتداول الكتب والمقررات، ودواوين العربية ومعاجمها...وقد سجّل المهتمُّون بالتأريخ الثقافي لهذه الحركة العلمية العريقة شيئا قليلا في بداية الأمر، ثم أخذ يتوسع ويتركز على ما انتهى إليه الدرسُ اللغوي عموما بالوطن الإسلامي.

ولابد من الإشارة – هنا - إلى أنّ مفهوم "النحوي " إنما هو من يشتغل بالدرس النحوي سواء في التحصيل أو التدريس أو التأليف تحديدا، وإن لم أتطرق إلى اختيارات النحاة الجزائريين، فله مجالٌ آخر غير هذا المقال إذ كان القصد الإشارةَ لا غير.

- **الإشكالية**: ونظرُ الباحث هنا إنما هو محاولة بيان مدى مواكبة جهود النحاة الجزائريين للدرس النحوي السائد بالمشرق والأندلس، ومدى إسهامهم في إغناء مُنتَجه، وهل كان ذلك الإسهام أصيلا، وما الذي بني منه على أصول مشرقية أو مغربية؟ كما يبحث المقال عن جذور ذلك الإسهام وعن امتداده أيضا.

- **أهداف** بحث الموضوع: وهدف المقال الإشارة ولو بإيجاز إلى ما بُذل من الدرس النحوي خدمة للعربية من جميع جهات الوطن بما في ذلك أرض توات، ومن جميع المكونات البشرية لسكانه على اتساع الجغرافيا وتطاول فترات التاريخ؛ لتبقى مسؤولية الجميع قائمة وملحَّة في المعاهد والمدارس والجامعات والمواقع الإلكترونية؛ للمحافظة على العربية لغة القرآن أمام المدّ الذي يستهدف إضعافَ اللسان العربي بين أبنائه.

- **منهج البحث**: يكفي ههنا مقاديرُ مناسبة من عرض المادة العلمية مع تحليل بعض عوامل توافرها، واعتمادها في الحركة الثقافية التي كان النحو العربي أحدَ مكوناتها الأساسية، تحصيلا وتدريسا وتأليفا...

- **الدراسات السابقة**: هناك جهود علمية كبيرة تقليدية وأكاديمية تعرّضت لجهود النحاة الجزائريين في إغناء الدرس النحوي خصوصا، وإثراء الإنتاج العلمي فيه...ومدّ الجسور بين المتقدمين والمعاصرين من أبناء الوطن الواحد. نذكر جهود المرحوم بلقاسم سعد الله في التاريخ الثقافي الجزائري، ومَعْلمة الأستاذ بلقاسم ضيف، والجهود النحوية لعلماء توات...والرسائل العلمية الحديثة. وهي مما اعتمد الباحث منها مراجع لمقاله. غير أن رسم الصورة بما يجمع بين التحصيل والتدريس والتأليف، وتحصيل اتصال الأسانيد العلمية للمدرسة النحوية بالجزائر يبقى مما انفرد به صاحبُ المقال ولابد.

1 ـ تمهيد.

لا يسمح الموجودُ من سجل التأريخ الثقافي للدرس اللغوي بوطن المغرب الأوسط بكثير من التفاصيل في القرون الأولى؛ يعود ذلك لتأخر حصول الفتح الإسلامي أولا، ولقلّة تدوين الحركة الثقافية نسبة إلى ما حصل بالمشرق، وثالثا لصعوبة التمييز بين دول المغرب في القرون المشار إليها فيما قبل القرن الرابع الهجري تحديدا. إنما سمحت بعضُ المحدّدات كنَعْت أعيان العلماء: بالبجائي، والتاهرتي، والأوراسي... بمعرفة بعض ذلك النشاط العلمي من جهة تعيين الشخصيات أو المدارس، وكذا المقررات العلمية، والإنتاج الفكري عموما.

ومع تقدم الزمان أمكن إحصاء كمّ جيد من التأريخ الثقافي للدرس العلمي، سواء تعلق الأمر بالشرعيات أو ما يُسندها من علوم الآلة: اللغة والمنطق والتاريخ...غير أن تحديد زمان البحث بالقرن التاسع يتعافى من أكثر تلك العوائق، ويكتسبُ محدّدات وملامحَ أكثرَ وضوحا، واتساعا، ويمكن بالتالي تسجيل كمّ هائل من الجهود اللغوية مختلفة الفنون، متفرقة على اتساع المكان، وتطاول الزمان.

وهكذا وفي عملية جرْد متوسطة المدى يمكن إحصاءُ جملة إنتاج فكري، ونشاط علمي يتعلق أساسا بمفردات المدرسة اللغوية الجزائرية بمفهومها الأكاديمي المركب من المدارس العلمية، والعلماء في اللغة والنحو وغيرهما، ومن المقررات العلمية، وما أدى إليه استقرار مناهج التعليم والتأليف.

وعلى هذا النسق نستعرض نشاط النحاة الجزائريين بداية من تحصيل مادة اللغة العربية داخل الوطن، أو ما تيسر للطلبة يومها من الرحلة شرقا وغربا، وكذلك من جهة التدريس في المدارس والمساجد والزوايا وبيوت العلماء...مع تسجيل المقرَّرات العلمية التي انتهى الدرس اللغوي وخصوصا النحوي إلى اعتمادها، ونختم الحديث عن الذي تيسر من التأليف من جهة نحاة الوطن الجزائري.

ومن الجيد الإشارة إلى وصل أسانيد الفنون العلمية في ميدان اللغة بغيرها من المدارس وطبقات العلماء، والتآليف العلمية؛ إذ كان ذلك يعكس مدى الصلات العلمية التي تيسرت للنحاة الجزائريين بغيرهم من علماء ونحاة الوطن الإسلامي.

2: نشاط التحصيل العلمي.

مع شيوع الطلب داخل الوطن، وكذا تيسّره خارجه إلا أننا هنا إنما نعتمد على النصوص التي توثّق لذلك لا مجرد الاستنتاج أو الإشارات العامة، فقد ذكر السخاوي أن عبد الله بن يوسف الحسناوي البجائي (ق 09هـ/15م) أخذ عنه وأنه لقيَه، وغالب ذلك كان بمصر أو بمكة كما تفيده نصوص أخرى، فقد قال: " أخذ عنّي الألفيةَ وقرأ عليّ الموطأ بتمامه، وكتبتُ له إجازة كاملة."[1]. وفي هذا النص إشارة إلى ما انتهى إليه الدرس اللغوي من اعتماد ألفية ابن مالك مقرّرا للتدريس في المعاهد العلمية.

وكذلك ذكر السخاوي أن إبراهيم بن محمد المشْدالي من أعيان القرن التاسع الهجري، قد لقيَه بالحرمين الشريفين وحضر دروسَه، فقد قال: " لَقِيَنِي بِكُل من الْحَرَمَيْنِ وَسمع مني أَشْيَاء من تصانيفي وَغَيرهَا، وَمن ذَلِك دروسا فِي شرحي للألفية." [2].

وقد كان يحي بنُ عبد الرحمان العَجيسي (862هـ/1458م) ممّن رحل قديما في طلب العلم من مكان مولده بأرض عجيسة فقد: " نشأ ببجاية وتعلم بها وبقسنطينة وعنابة وتونس، فأخذ عن أشياخها علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو والمعاني والبيان وغير ذلك، ورحل إلى المشرق..."[3]. قال السخاوي في ترجمته: " كان إماما نحويا فصيحا مفوَّها، قويَّ الحافظة..."[4]. وكفى بهذه الشهادة تزكية لهذا الفاضل من جهة عارف بالرجال وأقدارهم في العلم والدين.

ونسوق ههنا نصوصا عن شخصيات من أرض توات رحلتْ قديما في طلب العلم، وحضرت دروسا على أعيان الوطن في فنون متعددة منها النحو؛ فهذا عبد الكريم بن محمد التواتي (1042هـ/1633م) يأخذ عن الشيخ سعيد قدُّورة مفتي الجزائر، فقد " التقى به الشيخ في مدينة بني عباس التابعة لولاية بشار في جنوب الغرب الجزائري، فجعل منه إماما نحريرا في علم النحو، وفي شهر صفر من عام سبعة عشر بعد الألف ابتدأ معه قراءة ألفية ابن مالك... "[5]. وهذا النص يفيد الحركة الدؤوب التي كان يقوم بها بعض المشايخ والطلبة على حدّ سواء. ذلك أن مدينة بني عباس تقع في الجنوب الغربي من عاصمة وطن الجزائر.

ونزيد القارئ السعيد النص التالي، ففيه زيادةُ تفصيل على الذي قبله؛ حيث أخذ عبد الكريم التواتي عن محمد بن عبد الكريم القْراري، ونصُّ ما ذكره وهو يحكي عن نفسه: " ولما التقيتُه وسلّمتُ عليه قال لي: في أي كتاب تقرأ الآن؟ فقلتُ: في ألفية بن مالك، فقال لي: أين بلغتَ؟ فقلتُ: له الموصول. فقال لي: أنت موصولٌ إن شاء الله... من جملة ما أخذ عنه الأجرّومية بالكامل." [6]. وهذا النصّ يقتضي أن الفاضل المذكورَ على عادة الطلبة ممن قد تعدّد الشيوخُ الذين أخذ عنهم المقرّرَ الواحدَ كالألفية

مثلا، وربما حدث أن يبدأها على شيخ ويستكملها على آخر أو آخرين قراءة درس وتحقيق، بحسْب ما تقتضيه ظروفُ الطلَب واستقرار المشايخ.

وفي النص التالي أن محمدا بنَ علي الوَقْرُوتي (1062هـ/1653م) قد " درس على عبد الكريم التواتي النحو حتى لم يكدْ يُعرفُ إلا به."[7]. وهي عبارة تفيد طول الصحبة، وإتقان المقرّر العلمي انفردَ أو تعدّد، ومحاولة التخصص في فنّ محدد أكثر من العناية بغيره. ومن الواجب أن نشيرَ هنا إلى الإلمام الحاصل للطلبة في جملة الفنون، خصوصا الفقه، إذ كان محطَّ اهتمام النشاط العلمي، وتفاصيل الحياة الإسلامية.

وعادة الطلبة الإقامةُ التي تكفي لتحصيل المقررات العلمية كاملة أو ما يتيسر منها؛ غير أن النص التالي يحتاج إلى التعقيب عليه، فقد ذكرتْ كتب الرّحلات أن محمدا بنَ أبَّ المُزمّري (1160هـ/1750هـ) " سافر إلى سجلماسة لحضور مجلس أبي إسحاق بن إبراهيم السجلماسي في الألفية أياما؛ ليرجعَ بعدها للاشتغال بالنظر والمراجعة لشروح الألفية، وغيرها من كتب النحو."[8]. وهذا يعني أنّ ما حضره السجلماسي المذكور كان على سبيل المطالعة التي يتمُّ فيها ختم الألفية مثلا في أيام معدودة لا يتوقف الشيخ إلا حيث يَستشكل الطلبةُ ذلك المحلّ من الألفية المقررة أو غيرها. وقد ذكر ذلك أبو راس الناصري المعسكري في كتابه فتحُ الإله، وهو يدوّن رحلتَه ولقاءَه مع الطلبة. ونحنُ نحيل القارئ عليه حيث يطالع فيه نصوصا متعددة تبين طريقة العلماء في التدريس.

والأمر الثاني: أن يسبق للشيخ قراءة الألفية على من تيسّر من مشايخ بلده، بحيث يكفيه ما تيسّر له من الأيام المشار إليه في قراءة الألفية على السجلماسي المذكور. أو يكون ما ذكر من الأيام المحدودة في الرحلة المسجلة أعلاه من قبيل المبالغة في فضائل الشيخ المزموري للإشارة إلى النبوغ والفتح الحاصل لطالب العلم، ببركة النية الصالحة في طلب العلم، ورضا الشيوخ.

ونختم هذا العنصر بذكر محمد بن أبي القاسم الهاملي (1315هـ/1897م)، فقد " قصد زاويةَ ابن أبي داود في زواوة، فأخذ عن مؤسسها... فنونَ العربية الخ ."[9]. والنصُّ يفيدُ أن الدرس النحوي كان موجودا بالزوايا، على ما تيسّر من مشايخ العصر، والمقررات العلمية. وعبارة العربية عامة في النحو وغيرها، غير أن الغالب كان النحو في الألفية والأجرومية وشروحهما، وربما تيسرتْ متون أخرى نشير إليها لاحقا.

ولا يخفى أن الفترة الاستعمارية لم تقطع الاهتمامَ بالدرس النحوي في كامل الوطن، غير أن الوتيرة كانت قد زادت في التناقص. إن هجرة العلماء وصعوبة الظروف بالمدارس على فرض تيسّرها تفسّر لنا ذلك التناقص المسجل.

وقد شهدت الحركة العلمية في الدرس النحوي انطلاقة جيّدة بعد الاستقلال الوطني في المعاهد العلمية، والجامعات الوطنية اشترك في ذلك الأساتذة من أجانب وجزائريين، وأثمرت استمرارا واسعا، وإنتاجا تغلبُ عليه النزعة الأكاديمية دون أن تفقده نجاعتَه.

ونودُّ الإشارة إلى أنه قد تمّ مزج مضامين النحو العربي بمباحثه ومناهجه التقليدية بالمستجدّ من النظريات ومذاهب المدارس النحوية، وأمكن إيجاد توافقات كبيرة سمحت بإدخال هوامش كبيرة من تطوير مادة ومنهج النحو العربي. على أن ذلك رغم كثرة الإنتاج فيه لا يزال في خطواته الأولى نحو استهداف صورة أكثر حداثة وفاعلية تمثل الامتداد الحقيقي للجذور الراسخة التي أنتجت النحو العربي. ونترك التوسع في دراسة هذا الامتداد الأكاديمي لمقالات أخرى لاحقة تعطي الموضوع حقَّه، وتخرجه من هوامش الإشارة إلى صلب البحث العلمي.

03: نشاط الدرس النحوي.

نقصد بالدرس النحوي هنا ما قام به المشايخ على اختلاف تخصصاتهم من نشاط التدريس لمقرّرات النحو، إما بالقصد كتدريس المقررات مثل الألفية والتسهيل لابن مالك، والمقدمة لابن آجرُّوم، وقطر الندى وشذور الذهب لابن هشام الأنصاري وغير ذلك... أو بمباحث النحو التي كانت تتخلل تدريس الفنون العلمية. وعلى كلّ حال فقد قام شيوخ المدارس والمساجد والزوايا والمعاهد العلمية والجامعات قديما وحديثا بجهود كبيرة، ومضنية في نفس الوقت خدمة للغة العربية ممثلة في الدرس النحوي أساسا. وإذا كان التأليف في ذلك محدودا فهو مع ذلك جيّدٌ في الإشارة إلى الجهد المبذول في هذا السياق؛ وكاف أيضا في الإشارة إلى ما بذل ويبذل من جهود التدريس والتعليم.

ونحن نشير دون قصد الاستكثار فضلا عن الاستيفاء إلى بعض ذلك داخل وخارج الوطن، مثاله ما ورد في ترجمة إبراهيم بن علي المخزومي الشافعي (891هـ/1486م) من أنه قرأ بمصر على أبي الفضل البجائي (866هـ/1460م)، وعلى تقي الدين الشُمُنّي. وعبارة السخاوي في كتابه الضوء اللامع: " وَسمع على ثَانِيهمَا - البجائي - شَيْئا مِنْهَا [الألفية] والتقي الشمني، قَرَأَ عَلَيْهِ فِي رحلته الأولى الْمُغنِي مَعَ حَاشِيَته عَلَيْهِ"[10]. وكتاب المغني المشار إليه لابن هشام الأنصاري في النحو، والحاشية المذكورة هي للشمني القسنطيني، وهي حاشية مشهورة شاعت في زمان مؤلفها، ووقع تداولها، والانتفاع بها.

ولا يفوتني هنا التنويه بقيمة هذه الشخصية وهذا الإنتاج العلمي، ذلك أن شيوع التأليف في حياة مؤلفه وسط أقرانه، وفي المعاهد العلمية الراقية، دليل على كفاءة ونبوغ صاحبه، وعلى مقدرته الفائقة في صنعة التأليف، وإلا فإن الحواشيَ على المغني كثيرة وأصحابها أعلام لا تنقصهم المقدرة العلمية.

وبخصوص إتقان صنعة التدريس، ولا يكون ذلك إلا بالنبوغ العلمي، وطول الممارسة والتمكن من الفنون، نجد في النص التالي ذكرا لبعض من حازَ ذلك، وثبتت الشهادة له بالكفاية والمقدرة. ففي ترجمة عبد الرحمان بن محمد الوقّاد (1057هـ/1647م) أنه كان " بارعا في تدريس اللغة العربية وقواعدها."[11]. وعبارة اللغة العربية جامعة لفنونها أو المتيسّر من ذلك يومها، وهو هنا كما ستتم الإشارة إليه لاحقا: البلاغة، والصرف، والعروض...

ويَحسنُ أن نشير إلى إلمام شيوخ التدريس بكامل الفنون التقليدية المتاحة يومها، فقد " كان بعض المدرّسين قد اشتهروا بتدريس مادة معينة كالفقه أو النحو، وبعضُهم كان يجمع في دروسه عدة علوم، وقد كان الغالب عليهم الجمع بين علوم مختلفة، فنحنُ نجد مثلا في ترجمة أحمد الزكّوطي المعروف بأبَرْكان أنه كان يقرئ تلاميذه في تلمسان حوالي ثمانية علوم من رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه، إلى ألفية ابن مالك في النحو..." [12].

أما فيما يخص " العلوم اللغوية ونحوها فقد كانت لا تخرج أيضا عن المواد التقليدية، يضاف إلى ذلك هبوط مستوى التحليل والاستنتاج، وشيوع روح التصوف لدى مدرسيها أيضا. وهذه أهمُّ هذه العلوم: النحو بالأجرومية وألفية ابن مالك وشروحها كالمكودي، الصرف بلامية ابن مالك في التصريف، وفقه اللغة، والبلاغة بجوهر الأخضري وحواشي السعد التفتازاني ومتنه، وتلخيص المفتاح." [13]. فهذه جملة المواد العلمية وما قرر لها من المتون والشروح والحواشي، وإن كان ذلك ليس نمطا عاما بل إن المدارس تتفاوت في التعاطي مع تلك الفنون قلة وكثرة.

وطريقة التدريس بالمعاهد والمساجد والزوايا وفي بيوت العلماء كانت وفق التقاليد المستمرة هنا بعموم المغرب الإسلامي، وخصوص الجزائر. إن شيوع اعتماد المقررات العلمية التي تمّ إنتاجها هاهنا بالمغرب أو قَدمَت من المشرق قد أعاد تشكيل منهجية التدريس بربطه بعبارة المتن وما يتم تداوله من الشروح والحواشي عليه، إضافة إلى تعليقات الشيوخ أثناء الدروس.

وحفظُ المتن المقرر هو أساس العملية التعليمية، وما يقوم به الشيخ من الشرح والتعليق ينبني عليه في الأزمنة التي يتعرض لها البحث. بعد أن كان التدريس عاما للفنّ، حيث يتمُّ استعراض مختلف المعارف الشرعية واللغوية بمقادير من التوسع تزيد أو تنقص بحسب كفاءة الشيوخ، ومستويات الطلبة، وما تسمح به الظروف الاجتماعية والسياسية من طول أمَد الطلب أو قصَره.

وقبل أن نشير إلى ما قرره ابن خلدون في ذلك نسوق هذا النص الخاصّ الذي يترجم لشيء مما قدمناه، فإنّ محمدا بنَ أبَّ المزمّري (1160هـ/1746م) قد كتب من اطلع على طريقة تعليمه أنه " كان يراعي القدرات العلميةَ والمكتسبات القَبْلية لهؤلاء المتعلمين ومستواهم وأعمارهم. وهذا ما يتطلب

انتقاء المادة العلمية كلّ حسْب مستواه وقدراته، وهي طريقة مفيدة لمراعاتها التدرج في تلقين المادة التعليمية." [14].

وهذا الذي ذكره هذا الفاضل هنا يتكرر في غير هذا المحلّ، فقد كانت المدارس مستويات مختلفة، وبعبارة أخرى كان الطلبة طبقات علمية أرقاها الطبقة العليا...والمطلوب من الشيوخ أن يراعوا ذلك، ويقسّموا الطلبة إلى مستويات متفاوتة من جهة المقررات العلمية، وطريقة التدريس...

وقد أشار ابن خلدون في الفصل السابع والثلاثين تحت عنوان: في وجه الصواب في تعليم العلوم، وطريق إفادته إلى طريقة أهل المغرب خصوصا في التعليم من جهة البرامج والمناهج. ونحن نسوق نصّ كلامه، ونعقب بما استقرّ الحال عليه أو تأخر في الفترات التالية التي أعقبت عصر ابن خلدون. ونص كلامه: " اعلم أنّ تلقين العلوم للمتعلّمين إنّما يكون مفيدا إذا كان على التّدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا، يلقى عليه أوّلا مسائل من كلّ باب من الفنّ هي أصول ذلك الباب. ويقرّب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوّة عقله واستعداده لقبول ما يَرد عليه، حتّى ينتهي إلى آخر الفنّ؛ وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلّا أنّها جزئيّة وضعيفة. وغايتها أنّها هيّأته لفهم الفنّ وتحصيل مسائله، ثمّ يرجع به إلى الفنّ ثانية فيرفعه في التّلقين عن تلك الرّتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشّرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفنّ فتجوّد ملكته. ثمّ يرجع به وقد شدّ فلا يترك عويصا ولا مهمّا ولا مغلقا إلّا وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفنّ وقد استولى على ملكته. هذا وجه التّعليم المفيد، وهو كما رأيت إنّما يحصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقلّ من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسّر عليه"[15].

إن محاولة تنزيل ما قرره ابن خلدون في الفقرات أعلاه تبدو واضحة، ويسودها كثير من التطابق؛ ذلك أن تقسيم الطلبة إلى مستويات متتالية من صغار الطلبة إلى كبارهم من أهل الطبقات العليا من جهة، واختلاف المقررات العلمية بين مستوى وآخر من جهة الكمّ العلمي المقترح وأيضا من جهة مراعاة الفروق الفردية؛ يدل كلّ ذلك على أن التعليم كان يتمّ بصفة تدريجية، وأنّ التوسع في المعارف كان آخر مراحل ذلك التعليم. وقد كانت عادة شيخنا محمد بلكبير بأدرار قريبة من ذلك.

ومن جهة ثالثة فإنّ الاعتماد على الحفظ كان سائدا في مختلف العلوم؛ لوجود المقررات المحددة في مختلف الفنون العلمية بما فيها النحو؛ فقد كان كتاب التسهيل ثم ألفية الزواوي، وبالخصوص ألفية ابن مالك للطبقات العليا، ومقدمة ابن آجرُّوم وغيرها لصغار الطلبة...كما أن طبقات المدرسين كانت تنقسم وباستمرار إلى المكلفين بصغار الطلبة، وإلى المعيَّنين لكبارهم وهكذا.

ومن المفيد هنا أيضا أن نشير إلى أن الحفظ المشار إليه كانت له نسبة لا تتجاوز نسبة الوسائل إلى المقاصد المعرفية، ربما كان ذلك لنقص أو انعدام ثقافة الكتاب والمكتبة في المدارس بصفة عامة. وأما الشرح والفهم والاستيعاب ومن ثم تحصيل الملَكة العلمية سواء في التحصيل أو التدريس أو التأليف، فقد كان هو المقصدَ الأساس إلا أنه وبدخول القرن العاشر، وانصرام قرن النبوغ العلمي وهو القرن التاسع تحديد، قد صار الحفظ مقصدا يساوي الشرح وتحصيل الكفاية المعرفية. ربما لم يحدثْ ذلك في زمن واحد متقارب، غير أن خطّ السير كان يجري لصالح تغليب جانب الحفظ على الفهم والاستيعاب، وهو ما يفسر النبوغ في ضبط المحفوظ دون النبوغ في مادة العلم ومصطلحاته.

ومن الضروريّ أيضا أن نُشير إلى أنّ نشاط التدريس ظلّ مستمرا حتى في اللحظات التي كان يتعسّر فيها الاستقرارُ الاجتماعي للدولة الوطنية، بما في ذلك فترة الاستعمار حيث تتعطل أرزاق العلماء، ونفقاتُ الطلبة، ومع ذلك نسجّل استمرارا في أداء الواجب على العلماء من التعليم. والنصّ التالي يفيد ذلك، كما يفيد علاقته بالدرس النحوي " ظلّ عبد القادر المجاوي حوالي أربعين سنة في التدريس في كلّ من قسنطينة والعاصمة. وفي الثلث الأخير من حياته عكف على التأليف في المواد التي كان يدرّسها لتلامذته. من ذلك كتاب (الدرر النحوية) وهو مطبوع، تناول فيه شرح الشبْرَخيتي. ولعلّ له تآليفَ أخرى في نفس الاختصاص."[16].

وهذه المدَدُ المتطاولة في التدريس في المتوفر من الظروف تدل على شيئين: الأول منهما هو وعي المشايخ بالدور الحضاري للتعليم، وضرورة استمراره، والحرص على عدم الاستجابة للضغوط الاجتماعية والاقتصادية، وبعبارة عامة إلى الظرف السياسي مهما اضطرب حاله. والأمر الثاني: أن المُدَدَ المشار إليها تؤكد الجهد المبذول في تدريس مادة مقررة على الدوام كمادة النحو العربي مثلا، وما ينفقُ في التمكين لها ضمن المعارف الشرعية وفي المحيط العلمي، والدوائر الثقافية عموما، رغم شيوع الأمية واللغة الدارجة...

وقد أشار المرحوم سعد الله إلى حقيقة تولي المشايخ لوظائف التدريس بمرتَّب أو بدونه السنين الطويلة، ومدة الأربعين عاما تحديدا مرّات عديدة في كتاباته. نذكر منهم ما في تاريخ الجزائر الثقافي من أن محمد بن عبد الله الموهوب توفي (1361هـ/1942م)، كان ممن قرأ على المجاوي رحم الله الجميع."[17]، وقد ودامت مدة إقامة الدّيسي بالزاوية حوالي أربعين سنة، إذ دخلها في أوائل الثمانينات وتوفي سنة 1922م"[18] .

4 _ نشاط التأليف.

ما تقدم كان بخصوص جهود التحصيل العلمي لمادة النحو العربي، استجماعا للقدرة على تدريسه في المدارس والزوايا والمساجد، وحيثما تيسر للشيخ أن يقوم بما هو واجب عليه من أمانة نشر العلم وتعليمه. ونحن نُردفُ ذلك بالحديث عن نشاط تابع للتدريس تعاطاه كثيرٌ من المدرسين قياما بواجب البحث العلمي، وهو ما يوفّر للطالب مادة العلم مدونة في الكتب وميسّرة في المكتبات. وهذا الذي يتعاطاه المؤهَّلون من المدرسين تمليه في كثير من الأحيان تقاليد العلم من ادخار الصدقات الجارية عبر بلاد الإسلام، ومرّات أخرى لإسعاف الطلبة بالمقررات العلمية التي يندُر وجودُها بين

أيديهم؛ ولأجل هذا تكثر الشروح على المتون المقررة رغم وجود جهود للسابقين حولها، وما ذاك إلا نظرا من المدرّسين بما يوافق مستوى طلبتهم، وما يصلح لهم من عبارات الشرح والحاشية، وما يراعي قدراتهم في حال ضعفها، أو صعوبة الشروح المتداولة، وهكذا...

والباحث يرى هذا وغيره من جملة الأسباب التي دفعت بعلماء النحو من أهل المغرب عموما إلى التصنيف، وتداول التآليف بين معاهد العلم، وتيسرت منها مقادير جيّدة بين أيدي الطلبة والمشايخ، وفي المكتبات داخل وخارج الوطن، بل إن التقليد كان جاريا وإلى عهد قريب بتحبيس التآليف بأرض الحرمين، وتركيا عند الباب العالي، وبجوامع الأزهر والزيتونة، والقرويين...

ونبحث هذا العنصر بتقسيمه إلى التآليف المستقلة نثرا وشعرا، والتي ابتدأها أصحابُها دون أن تكون متعلقة بعمل آخر اختصارا أو بسْطا بالشرح أو الحاشية، أو التعليق والتقرير...أو كانت مبنية على عمل آخر مغربي أو مشرقي بالأنواع المذكورة أعلاه.

4 . 1 - التآليف المستقلّة.

تمّ إحصاء كمّ جيّد من تآليف الجزائريين في النحو سواء كان بطريق النثر أو النّظم، وهذه التآليف تختلف في حجمها بين تأليف صغير وكبير، مع ملاحظة أن مقاديرها أخذت في التناقص بطول العهد، ويمكن للباحث أن يحتمل أسبابا لذلك التناقص هل هو لتوفر المادة العلمية بالمدراس، من متون وشروح وحواشي، و كفاية ما هو موجود من التآليف على المقررات العلمية مشرقية أو مغربية؟ أم أنّ القدرات العلمية للمدرسين قد أخذت في التناقص إلى ذلك العهد، واندرس بالتالي سوق العلم إلا قليلا مما كان يتاح من النبوغ داخل الوطن أو خارجَه، أم أن التركيز كان أكثرَ على التدريس والحفظ، لا على التوسع بالبحث والمطالعة؟

إن تفسير الظاهرة بتعدد الأسباب يبدو أكثر وجاهة؛ لأن هذا التناقص لم يحدث طفْرة، وربما زدنا إلى ذلك ضَعف مستويات الطلبة مما استدعى الحاجة إلى التدريس المستمرّ، والاكتفاء بما هو مشهور وموجود من المقررات وشروحها.

2.04- الإنتاج النثري في موضوعات النحو العربي.

يطالعنا القرن التاسع الهجري محلّ الدراسة بعمل أحمد بن حسن بن قنفد القسنطيني (809هـ/1406م)، جعل عنوانه " الإبراهيمية في مبادئ علم العربية."[19]. وابن قنفُد المذكور من أهل قسنطينة، وكان قد رحل إلى فاس بنية الإقامة بها، حيث مكَث 19 سنة، ليعود بعدها إلى بلده الأصل.

كما ألّف تلميذه محمد بن مرزوق الحفيد (842هـ/1438م) الشخصية العلمية البارزة في القرن التاسع، والذي دارت عليه أسانيد أهل زمانه، فقد عمل رسالة "المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج"، قال من اطلع عليها أنه أجاب بها ابنَ السراج عن مسائل نحوية ومنطقية."[20]، ولابن مرزوق الحفيد رسالة " الأوسط "، وكذا "الأصغر". وهذا الأخير فيما يبدو هو المسمى "الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب." [21]. وواضح من العنوان أن موضوعه النحو العربي.

كما ألف أحمد البجائي (837هـ/1436م): " رسالة بها تعليق في النحو"[22]، وعبارة الرسالة توحي بالحجم الصغير أو المتوسط في أحسن الأحوال، والظاهر أنه في مبادئ النحو لا غير، فيكون القصدُ تيسيرَ وجود أهمّ قواعد النحو بين أيدي الطلاب، والمدرسين للطبقات الابتدائية والوسطى، أمام ما كان موجودا من المقررات العالية كالتسهيل والألفية وهما لابن مالك الأندلسي...

ومن تلامذة ابن مرزوق المذكور نجد عبد الرحمان الثعالبي (875هـ/1469م)، فمع ما له من التآليف المتنوعة المذكورة في التفسير والفقه وغير ذلك، قد ألف في النحو ما يتصل موضوعُه بالتفسير كما في كتابه " تحفة الإخوان في إعراب آي القرآن"، وللثعالبي أيضا " الذهب الإبريز في تفسير وإعراب بعض آي الكتاب العزيز." [23]. ونلاحظ هنا أن تقديم التأليف على هذا الشكل المرتبط بالقرآن كما ههنا، يقدم شكلا من النحو التطبيقي الذي يتمُّ فيه إعمال قواعد النحو، مع ما يقتضي ذلك من التحري والدقة العلمية، لتعلق الأمر بنصوص الكتاب الكريم، زيادة على ما في ذلك من استيفاء الخلاف، وتوجيهه العلمي. وهي مباحث عزيزة تزيد على كمّ التنظير الموجود في المقررات العلمية، والتي غالبا ما تخلو من مقادير كافية من التطبيق باستثناء الشواهد النحوية...

ونختم القرن التاسع بشخصية علمية ألفت في ميادين علمية مختلفة بشكل مختصر، لعله يلبي حاجة المتعلمين أكثر مما يحتاجه الباحثون، نرى ذلك في عمل محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ/1503م)، تذكر كتب التراجم أن له كتابا بعنوان " مقدمة في العربية"[24]، وواضح أن هذه

المقدمة هي فقط مقدمة، تعتمد الاختصار، وتقرير القواعد، مجتنبة من التفصيل ما يتجاوز الإيضاح. وقد طالعت عمل المغيلي المذكور من خلال كتابه: التبيان في علوم البيان، إذ كان مركزا على ذلك المنوال لا أكثر مع تسجيل نفعه للطالب.

وفي باب التطبيقات النحوية والصرفية تبَعا ألّف عبد الكريم بن محمد التواتي (1042هـ/1633م) رسالة: غاية الأمل في إعراب الجمل."[25]، لعله استجاب بها إلى ما رآه ضروريا من إلمام الطلاب بإعراب الجمل، وما في ذلك من الوجوه النحوية والتفصيلات العلمية. ولا يخفى أن التطبيقات النحوية لما يقرأه الطلبة من المتون العلمية، وإعراب الجمل خصوصا يجد فيها المطالع كثيرا من الصعوبات، وتسجّل فيها كثيرٌ من الحاجات.

ومما يندرج في التطبيقات أيضا ما ذكره ابن حمادوش في رحلته وغيره أن سحنون بن عثمان الونشريسي (آخر القرن العاشر الهجري) ألف " ألغازا "[26] في أبواب النحو ومسائله. إنّ من طبيعة

الألغاز أنها قليلة الحجم لا تستوفي كامل مباحث النحو ومسائله، لكنها نافعة في مجالها، وتتجاوز في تقديمها الطلبة إلى أساتذتهم... ومما ينسب لابن حمادوش أيضا شرح المكودي على الألفية: السانح في حواشي المتن والشارح"[27]. وهذا العمل يدلّ على اعتماد المدارس الجزائرية على شرح المكودي على الألفية، وهو شرح وجيز جمع بين توضيح المتن، وإعراب ألفاظه، كما يمتازُ بوضوحه.

وفي باب الألغاز وهو فنٌّ يغلب عليه النثر نطالع عمل سعيد بن إبراهيم قدُّورة (1066هـ/1655م)، وهو من كبار العلماء وسيأتي أنه رحل إلى حدود بني عباس من ولاية بشار حاليا، وأنه أقرأ الألفية بعضَ طلبة توات ممن صار من أعلامها فيما بعد، فلسعيد قدورة المذكور لغز بعنوان " هاج الصُّنبر "[28]، والظنُّ أنه موجه للطلبة والأقران عموما.

وممن كتب في أواسط القرن الثالث عشر الهجري في بعض أهمّ قضايا النحو والعربي وقواعده، محمد الصالح بن سليمان الرحموني (1242هـ/1826م)، فمن آثاره " ميزان اللباب في قواعد البناء والإعراب." [29].

ولا يفوتني أن أشيد بالعمل العلمي الكبير الذي يذكّر بعمل المتقدمين، وإسهاماتهم العلمية المميزة، فقد أشارت كتب التراجم إلى الشيخ عبد العزيز الثميني (1223هـ/1808م)، فمع تخصصه في الفقه الإباضي تحديدا، يذكر له " شرح المغني لابن هشام"[30]. وكتاب المغني لابن هشام له مكانته في المشرق والمغرب الإسلامي ولا تزال، بما امتاز به من القيمة المعرفية.

ومنهم طاهر بن صالح السمعوني الجزائري (1340هـ/1920م) له: " تقريب أصول التعريب[31]، وتسهيل المجاز إلى فنّ الألغاز[32]، وعمدة المُغْرب وعدة المُعرِب". والظاهر أنها كتب في النحو العربي، أو أنها جميعا تتصل بمباحثه، ولم يتيسر لي الاطلاع عليها.

كما ألف محمد أرزقي الشرفاوي (1374هـ/1954م) كتاب " إرشاد الطلاب إلى ما في الآيات من الإعراب"[33]، وهو كما ترى لم يلتزم القرآن كلّه، ولا حدّد من خلال العنوان سورة أو سورا بعينها، وإنما عرض لمجموعة مختارة من ذلك فوجهها إعرابيا، وهي طريقة معهودة في التناول النحوي لبعض الآيات القرآنية، كما فعل من قبل الثعالبي وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

ونشير هنا إلى تواصل الإنتاج بالطرق العصرية التي مهدت لها الدراسات العلمية في الجامعات والمعاهد العلمية، وقد قام بعض المدرسين بها بالكتابة على نمط المتقدمين مع الاستفادة من الطرق الفنية الحديثة في ذلك. فقد كتب المرحوم رابح بونار رسالة سماها: " طريف النحو والتصريف[34]. وقد طبع مبكرا ببيروت في أجزاء، ليتم به النفع في المدارس العلمية.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن الدراسات الجامعية قد نقلت الموضوعات النحوية من مجرد عرض القضايا والمسائل مع ما تتضمنه من المباحث العلمية التعليلية والتأصيلية المتفرقة في الأبواب المتباعدة إلى جمع أطراف الموضوع الواحد من الأبواب المختلفة. انتشر إذن نشاط البحث في النظريات النحوية، وتتبع تطبيقاتها في موضوعات اللغة، وقام الأساتذة من الجيل الأول بالإشراف على نشر ما تعلموه من أساتذتهم الأجانب من عرب وغربيين، وأنتج ذلك ولا يزال كما هائلا من الاهتمام بقضايا النحو، فغطّت جهود الأفراد كامل مسائل النحو أو كثيرا من قضاياه بالتنظير والتعليل، وأخضعت موضوعات النحو العربي إلى قوالب المدارس النحوية الغربية فنفع ذلك كثيرا وربما أنتقد شيءٌ منه.

أكتفي بشخصين منهما مازن عبد القادر المبارك الجزائري (معاصر) له أعمال منها: " العلّة النحوية نشأتها وتطورها، والرُّماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، والزجاج حياته وآثاره ومذهبه النحوي من خلال كتابه الإيضاح، وله المباحث المرضية المتعلقة بمَن الشرطية، والمقتضب في اسم المفعول من الثلاثي."[35]، وأستاذنا الدكتور عبد الكريم بكري حفظه الله له رسالة: ابنُ مضاء النحوي وموقفه من النحو العربي[36]. وهي رسائل علمية مبكرة في الإنتاج النحوي عكست ملامح التجديد في عرض مادة النحو العربي.

04. 3- الأنظام النّحوية في تآليف النحاة الجزائريين.

ما سبق كان إشارة وجيزة إلى ما ألفه النحاة الجزائريون في قواعد العربية نثرا، ولم يكن قصدنا الاستيفاء؛ لأن ذلك يخرج عن حد المقال إلى التآليف المطولة، وأما ههنا فإننا نشير إلى ما ألف في ذلك

نظما وهي كلمة أدق فنيا من كلمة الشعر، لغلبة الصنعة على الشاعرية فيما ينجزه المؤلف. وأعود إلى التذكير إلى أن القصد الإشارة لا الاستيفاء.

تَقدم أن الأجرومية قد حازت القبول في الأوساط العلمية، وهي على اختصارها ناسبت طبقة صغار الطلبة في المعاهد والمدارس العلمية والمساجد والمكاتب، وبكلمة عامة أماكنَ الطلب والتدريس، وتنافس الطلبة في حفظها والمشايخ في تدريسها والتأليف عليها قرونا عديدة ولا تزال كذلك.

وقد تعددت الخدمات على الأجرومية زيادة على ما ذكر، فمن الشروح القصيرة والمطولة إلى الحواشي إلى نظم متنها في رسائل علمية لا تتجاوز 300 بيتا، وممن نظم الأجرومية قديما داود أبو سليمان الإباضي (967هـ/1560م)، فقد ذكرت كتبُ التراجم المذهبية أن لهذا الفاضل نظما للأجرومية[37]، وهو عمل رائد من المستبعد أن يكون قد اطلع عليه من جاء بعده من غير أهل مذهبه الإباضي للمذهبية الضيقة المتبادلة يومها. وبعد فترة من الزمن قام أحمد بن قاسم البوني (1139هـ/1726م) بعمل مماثل نظم فيه متن الأجرومية في تسعين بيتا." [38]، كما نظم هذا النبيل قطر الندى لابن هشام[39]، وهو عمل مركز في قواعد العربية شاع في حياة صاحبه ونال القبول، وشرحه ابن هشام نفسُه، وأعاد البوني المذكور خدمته بالنّظم لسهولته للحفظ والمذاكرة وهو جهد سبق به البوني غيره. كما وجد للبوني نظم تضمن الألغاز النحوية[40].

ونجد أيضا عند الفقيه عبد العزيز الثميني (1808م) ما يدل على أن له هو أيضا نظما للأجرومية[41]، يغلَّب أن يكون استجابة لنفس الداعي من تسهيل متن المقدمة، وتوفيرا لمادتها بين الطلاب خصوصا في المناطق النائية، حيثُ يحدَّث أن لا تتوفر الكتب والمقررات كثيرا.

نختم الحديث عن نظم الأجرومية بعمل محمد بن سليمان إدريسو (1298هـ/1881م)، فقد كتب هو أيضا نظما لمتن الآجرومية[42]. وهكذا تكفي هذه الإشارة إلى مكان الأجرومية في المعاهد العلمية، وبين الشيوخ، وما حازه نظم المتون من القبول في الأوساط العلمية في القرون المتأخرة.

على أنّ نظم الأجرومية عمل غير مستقل تماما؛ لكونه ينبني أساسا على عمل جاهز وهو المقدمة الأجرومية، إلا أنني قدّمت ذكرها هنا باعتبار أن أكثر النظم وجد على هذه المقدمة الناجحة، ولكون النظم في حد ذاته يمكن ملاحظة جانب المخالفة لابن آجروم من جهة طريقة التأليف.

وأما ما ألف استقلالا ولا ارتباط له بالأجرومية، فنجد من ذلك عمل الطاهر الجزائري (1920م)، الذي تنسب له " قصيدة في الألفاظ النحوية"[43]، ولا يوجد ما يبين هذا العنوان، ويخصص هذه الألفاظ.

05- الشروح والحواشي.

كان ميدان التأليف في النّحو كما هو في غيره من سائر العلوم الشرعية، قد سبقت إليه تآليف كثير من غير الجزائريين في المشرق والمغرب، فلا غرابة أن يتمّ اعتماد كثير من تلك التآليف نظما ونثرا في معاهد التدريس، ولا غرابة أيضا أن تصيرَ بعضُ تلك التآليف مقررات علمية مشهورة وربما تمّ اعتماد ما عليها من الشروح والحواشي أيضا.

ونذكّر هنا بأن ألفية ابن مالك في النحو، وكتاب التسهيل في العربية له أيضا، ولامية الأفعال في التصريف لابن مالك المذكور، قد صارت جميعُها مقررات للحفظ والتدريس والتأليف، وكذا شاع من شروحها شروح ابن عَقيل والمكودي... كما شاعت كتب ابن هشام الأنصاري على الألفية وقطر الندى وشذور الذهب، وأكثرها شيوعا بين الطلبة قطر الندى في قواعد العربية.

إن النّحاة الجزائريين قد اطلعوا على كل ذلك وغيره، وقبلوا اعتماد كثيرا منه كمقررات علمية ناجحة، وتولوا تدريسَها تحفيظا وشرحا للطلاب، وتأليفا حول موضوع مادتها. ونحن نذكر شيئا من ذلك فربما كان شرحا على متونها أو حواشيَ على شروحها، وربما كان جهدا للنحاة الجزائريين في شرح شواهدها، وهو عمل يأتي على موضوعات النحو بالبيان والتقرير، وقد تمّ التأليف فيه قديما وحديثا.

ونقسم كالعادة عملنا إلى قسمين: ما يتعلق بالتأليف على موضوعات قوالبها نثرية، وأخرى من النظم، ونذكر أنه مهما بلغت درجة الاستكثار من الأسماء والعناوين فليس المقصود غيرَ الإشارة دون شرط الاستيفاء.

05. 01- أعمال النحاة الجزائريين على متون النحو النثرية:

اشتهر كتاب التسهيل لابن مالك في النحو والكافية لابن الحاجب في الصرف، وربما كان ذلك في حياة مؤلفَيْهما، وقد تداولتها العلماء، وقام على نصوصها الطلبة بالحفظ والاستظهار، والمشايخ بالتدريس والتأليف. وبانصرام القرن الثامن نجد أحمد بن محمد الزبير التنسي (801هـ/1401هـ) يقوم على كتاب التسهيل بالشرح، كما شرح الكافية[44]. ولا شك أن ذلك كان عملا زائدا على تدريس مادة الكتابين والقيام عليهما بالحفظ والتحفيظ والبيان.

كما نجد تقي الدين الشمُنّي (871هـ/1465هـ) من أهل قسنطينة - وقد رحل إلى مصر - يشرح مغني اللبيب لابن هشام، وإن كان عمل الشمني إنما هو تلخيص من حاشية البدر الدَّماميني[45] على كتاب المغني المذكور. ولأحمد بن يوسف التنلاني (1078هـ/1668هـ) أيضا " مختصر الدماميني على المغني."[46]. قد تولى إذا نحويان جزائريان عمل الدماميني بالاختصار، ولا شك أن ذلك يعود أساسا إلى المكانة

العلمية لكتاب المغني وحاشية الدماميني عليه. كما نجد للتنلاني المذكور كتابا بعنوان: غاية الأمل في إعراب الجمل، وقد قال من اطلع عليه: أنه شرح على لامية ابن المجراد المغربي.

كما شرح صالح بن موفق بن قويدر القسنطيني قطر النّدى لابن هشام، وهو مختصر مركز يهتم الطلبة بحفظه، ويتولى المشايخ تدريسه، غير أن ذلك لا يوازي الاهتمام بالأجرومية ولا الألفية. وعلى كل حال فتلك مقررات شاعت في المشرق، وقدم بها من رحل من أهل المغرب؛ لما وجدوا فيها من المنهجية العلمية، وحسن التآليف، وما فيها من مراعاة المستويات المتوسطة لكثير من طلبة العلم.

05. 02 - الأعمال العلمية للنحاة الجزائريين على الأنظام النحوية.

سيلاحظ القارئ السعيد هنا أنّ مجرد ما التزمناه من الإشارة لا الاستيفاء يدلّ على كثرة التآليف حول هذا الشكل من القوالب السائدة التي كان يتمُّ عرضُ المادة النحوية من خلالها بدل القوالب النثرية، ولا يخفى كذلك مناسبتها لسهولة الحفظ والمذاكرة.

مع بداية القرن التاسع شرحَ أحمد بن حسن بن قنفد القسنطيني (809هـ/1406م) ألفية ابن مالك، وقد كانت مشهورة في المعاهد حفظا وتدريسا لها، وتأليفا حول مادتها العلمية. وتشير كتب التراجم إلى عنوان ذلك العمل العلمي الرائد هو " هوية السالك في بيان ألفية ابن مالك"[47]. كما قام تلميذ ابن قنفذ المذكور محمد بن مرزوق الحفيد (842هـ/1438هـ) بالتأليف على الألفية المذكورة؛ إذ ينسب له كتاب "إيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك." [48]. ولم يصل إلى أيدي الباحثين منه شيء.

وفي حدود منتصف القرن التاسع تداول مجموعة من نحاة الجزائر على شرح متن الألفية المذكورة لشدّة الحاجة إلى ذلك، بعد أن صارت مقررة في المعاهد والمدارس العلمية. منهم: أحمد بن محمد شهاب الدين المقري (بعد 847هـ/1443م) فمن آثاره "التحفة المكية" شرح ألفية ابن مالك في النحو،

فرغ منه سنة 847هـ." [49]. كما أن إبراهيم بن فائد القسنطيني (857هـ/ 1453م) " قد شرح ألفية ابن مالك المذكورة أيضا في مجلد واحد."[50]. وقد قام يحي بن عبد الرحمان العجيسي (862هـ/1458م) الموصوف بالعلم في النحو والعربية، بشرح ألفية ابن مالك في أربع مجلدات أو ثلاث، وعدة شروح على الألفية أيضا."[51]. إن تعدد الشروح للعالم على المتن الواحد أمرٌ معهود لدى الأوساط العلمية، تمليه الحاجة إلى بسط العبارة أو اختصارها، أو التوسط في ذلك. وقد يكون التأليف في زمن مبكر من حياة المؤلف فيحتاج إلى إعادة عرْض عمله بما يراه مناسبا لما ذكرناه من أشكال العبارة. وممن شرح الألفية في هذا القرن الشمني السابق أحمد بن محمد تقي الدين (872هـ/1466هـ) إذ ينسب له: " منهج السالك إلى ألفية ابن مالك[52]. وهو في حكم المفقود.

ولا نترك القرن التاسع دون الإشارة إلى عمل محمد بن يوسف السنوسي (895هـ/1495م) " حول المقدمة الأجرومية وعنوانه: الدر المنظوم في شرح الأجرومية."[53]. وقد جاء العنوان على غير السجع المعهود، ربما كان ذلك من عمل النساخ أو هو هكذا. وقد عُرف السنوسي المذكور بكثرة التآليف في مختلف الموضوعات العلمية.

ممن ألف على الألفية مع الشهرة في الأدب والرحلة، أحمد أبو العباس المقري (1041هـ/1631م)، فقد ذكرت كتب التراجم أنّ له التحفةَ المكية في شرح الأرجوزة الألفية، وليس يوجد لها أثر في غير كتب التراجم مع قرب العهد بالمؤلف، وربما كان ذلك ببلاد المشرق. وهذا الفاضل الذي أشرنا إلى مؤلفه ينتمي إلى الفترة العثمانية التي أعقبت سقوط الدولة الزيانية، وهي فترة رغم ما حدث فيها من الفتور العلمي إلا أنها حافظت بنسَب متفاوتة على شيء من رصيد القرون السابقة ومنها التاسع بالخصوص. يطالعنا عبد الكريم بن محمد الفكون (1073هـ/ 1663م) بمؤلفه الذي سماه شرح على البسط والتعريف في علم التصريف، للمكودي فرغ من تأليفه سنة 1048هـ[54].

وقد كان المكودي المذكور ألف شرحا على الألفية حاز القبول بالمغرب خصوصا، والظاهر أنه تمَّم الصرفَ الموجود فيها بكتاب البسط الذي شرحه الفكون القسنطيني، كما أن للفكُّون شرحا على شواهد الشريف على الأجرومية."[55]. وشرح الشواهد وبيان محلّ الشاهد من قبيل التطبيقات النحوية التي كثيرا ما يحتاج إليها قارئ المتون العلمية في جانبها النظري. وقد قال في شجرة النور: " والتزم عقب كلّ شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد، كما شرح الفكون جمل المجراد." [56]. وما أشار إليه ابن مخلوف يعكس عناية الجزائريين بعمل المغاربة وما ألف في النحو من الكتب المتوسطة والصغيرة في النحو وقواعد العربية؛ لأنها سدّت حاجة علمية إلى المتون والاختصار، والشروح المحلّية، زيادة على ما فيها من منهجية التأليف الموافق لطرق التدريس.

ونشير إلى عمل أحمد بن قاسم البوني (1139هـ/1726م) شرح لامية الأفعال[57]، وهي منظومة في الصرف مشرقية الموطن مع أن مؤلفها ابن مالك أندلسي أطال الإقامة بالمشرق واشتهر به.

إن نحاة توات وهم ممن غلبت عليهم الموسوعية العلمية بما كان متيسرا يومها، قد ساهموا في النشاط النحوي تحصيلا وتدريسا وتأليفا، ولعل الإشارة إلى محمد بن أبّ المزمّري (1160هـ/1650م) في التاريخ المحدد هنا يؤرخ إلى فترة تلك المساهمة، والتي تمثل انطلاقة واضحة في هذا المضمار، وإن كان لا ينفي جهودا قبله ولكنها محدودة التسجيل في التأريخ الثقافي عموما. لابن المزمّري المذكور آثارٌ كثيرة في النحو تتعلق بنظم الأجرومية ثم شرح ذلك النظم لنفس المؤلف من ذلك " نظم مقدمة ابن آجروم وعليه شرحان:

قـال ابنُ أبَّ واسمُه محــمد °°° اللهَ في كـلّ الأمور أحمدُ
وبعدُ فالقصد في ذا المنظـوم °°° تسهيلُ منثور ابن آجرّوم.
وله أيضا : كشف الغموم على مقدم ابن آجروم.

وفيما يتعلق بالأجرومية دائما ألف محمد الصالح بن سليمان الرحموني (1242هـ/1826م) "الدليل على الآجرومية"، وكذا له "شرح على الأزهرية."[58]. والأزهرية مقدمة مركزة في النحو شُغل بها طلبة العلم والمشايخ لكنها دون الأجرومية في الاهتمام.

ولا يزال التأليف على الأجرومية جاريا، ففي زمان أحمد الطيب الزواوي (1251هـ/1836م) كتب "مُفيد الطلبة"، وهو شرح الأجرومية في النحو"[59]، فرغم كثرة الشروح عليها وتدريسها إلا أن الزيادة في ذلك لم تزل موجودة فضلا عن مطلوبة. ونشير هنا إلى عمل محمد بن سليمان إدريسو (1298هـ/1881م)، وما ينسب له من شرح الألفية[60]. وهي عبارة تؤكد الاعتماد المستمرَّ لهذا المقرر العلمي الناجح زيادة على تدريسه، وما يلقاه من جهة الطلبة من الحفظ المتقن التامّ من النبغاء منهم بالخصوص. وكذلك نشير إلى لامية الصرف لابن مالك، فقد اعتنى بتدريسها كما هو المعهود أحمد بن العباس الوهراني؛ بل له شرح على لامية الأفعال المذكورة."[61].

ونتدرج شيئا فشيئا مع الزمان مما ينتمي إلى العهد العثماني الذي شهد ارتخاءً دون أن يحصل في ذلك انقطاع، فقد شرح أحمد الطاهري التواتي عمل المزمري سابق الذكر في نظم الأجرومية وسمّى أحمد الطاهر عمله: " السلك المنظوم على نظم ابن أبَّ لمقدمة ابن آجروم[62]. كما أننا نجد لصالح بن موفق بن قويدر القسنطيني شرحا على الأجرومية[63].

وفي أواخر القرن التاسع عشر تطالعنا شخصية مهمة اشتغلت بالتعليم برامج ومناهج وأسهمت في تطوير وإصلاح التعليم، وهي شخصية عبد القادر المجاوي (1912م)، تذكر المراجع أن له مجموعة من الكتب النحوية غالبها جرى على الطريقة التقليدية من شرح المتون المعتمدة ومن ذلك: كتاب " الدرر النحوية شرح الشبراوية"[64]، وكتاب آخر بعنوان " شرح شواهد ابن هشام"[65]، وثالث هو " شرح

اللامية المجرادية في المسائل النحوية"[66]، ورابع سماه " الدرر البهية على اللامية المجرادية في الجمل"[67]، وخامس بعنوان " شرح الجمل النحوية"[68]، وآخر " نزهة الطرْف في المعاني والصرف"[69]. والظاهر أنها كتب متقدمة من حياة المؤلف قبل أن يكتب رسالته إلى المعلمين لا مجال للحديث عنها الآن.

ونختم بذكر شخصيتين ختمت بهما الفترة الاستعمارية، ولم يكتب لهما حضور دولة الاستقلال الأولى منهما شخصية الشيخ عبد القادر المسعدي النائلي (1956م)، فقد اشتغل بالتدريس وألف في

موضوعات النحو: شرح لامية الأفعال وهو مخطوط عند أحفاده[70].. والثاني منهما هو عبد السلام بن عبد الرحمان السلطاني الجزائري (1954م): له شرح شواهد الأشموني مطبوع في 03 أجزاء بالمطبعة الأهلية بتونس عام 1347م. وقد قال بخصوصه سعد الله: " وقد ألف أشهرَ وأكمل عمل في النحو بين الحربين، وهو (شرح شواهد الأشموني). وكان الشيخ من أولاد سلطان بناحية عين التوتة بإقليم الأوراس. وقد طبع كتابه في تونس، وأجازه له علماء الزيتونة، وأصبح من المؤلفات المعتمدة في التدريس بالزيتونة. ورغم كثرة العارفين بقواعد النحو منذ الحرب العالمية الأولى فإننا لا نعلم أن آخرَ قد أقدم على مثل هذا العمل الشاق."[71].

وهو عمل كبير دلّ على مكانته العلمية، وقدرته النحوية؛ إذ كان شرح الأشموني على الألفية من أحسن الشروح لتأخره، ومنهجه الجيد في ذلك والمركز. ولا يفوتنا عمل الشيخ أحمد الشريف الأطرش حول شرح قطر الندى وبل الصدى." ذكره في آخر كتابه الإمام ومدرسته بالمدينة. وقد كان الشيخ ممن درَس بالزيتونة، وتخرج بها أعقاب الاستقلال، واشتغل بالتدريس في المدارس النظامية إضافة إلى حلقات المسجد؛ حيث كان يدرس كتاب ابن هشام الأنصاري وغيره بمدينة وهران غرب الجزائر.

06 - المختصرات العلمية.

إنّ المقصود ههنا أعمُّ من أن يكون العمل مستقلا أو مبنيا على عمل سابق؛ ذلك أن ضرورات التأليف لأغراض تدريسية في الغالب جعل الحاجة ماسّة إلى شكل من الاختصار والتبسيط لصالح فئات يغلبُ أن تكون في مراحل التعليم الأولى. وسواء كان هذا بواسطة النثر أو النظم، فإنّ النشاط العلمي قد استدعى ذلك، و قد أوجد فعلا بعضَ المقادير من المختصرات .

06. 01: المختصرات النثرية.

ولنبدأ بما للمقري من رسالة يظهر مضمونها من عنوانها، فقد ألف أحمد أبو العباس المقري عملا سماه: إتحاف السيادة بضوابط حروف الزيادة، وله عمل مطوّل إلا أنه نسبة إلى موضوعه، وما يؤلف فيه من المطولات هو عمل أقرب إلى الاختصار، سماه: إعراب القرآن، وقد اطلعت على مضمونه فإذا هو يتتبع بصفة أخص ما يعدّ إشكالات في إعراب الحروف والجمل والآيات القرآنية. وهو كذلك عمل أصيل سبق عمل التنلاني في اختصاره للكتاب المطول لابن السَّمين، ومع ذلك فإنَّ اختصار التنلاني كبير الحجم أيضا، لكنه يبقى كعنوانه مختصرٌ شاع ذكره خصوصا بأرض توات، بين الطلبة والعلماء في القرون المتأخرة رغم ندرة نسخه.

وكتاب ابن السَّمين تفسيرٌ مطول يقع في عشرين جزءا، يغلب على مقاصد واهتمامات صاحبه الجوانب النحوية والإسهاب في مذاهب النحاة في ذلك، وكثرة توجيهات اللغوية والبلاغية وغير ذلك كثير، وقد رأى التنلاني الحاجة ماسة إلى اختصاره بما يقرب محتواه من جهة الحجم ومقادير المادة العلمية.

وممن أنجز عملا مختصرا من المتأخرين الطاهر العبيدي له تلخيص الأجرومية. والأجرومية على اختصارها قد رأى هذا الفاضل حاجة في تركيز ذلك الاختصار، والغالب أن القصد هو تيسير مقدار المحفوظ، مع إعادة الترتيب والتقريب.

06. 02: المختصرات النَّظمية:

وفيما يلي نتعرض إلى بعض ذلك بالإشارة إلى من عمل مختصرا بالنظم لا بالنثر، إذ كان النظم سائدا في زمانه وقد لقيَ من الاستحسان في الأوساط العلمية سواء المشايخ أو الطلبة الشيء الكثير. أما أولا فللاختصار الحاصل فيه وهو ما يسمح بجمع كثير من القضايا والمسائل، والقواعد في الحكم القليل ولو طال نسبة إلى السائد في ذلك من النثر.

وأما ثانيا فلسهولة الحفظ لكلّ ما هو مقرر نظما. ولا يخفى أن الأعصار الأخيرة قد شهدت تراجعا كبيرا عن الذي كان سائدا من التوسع في الدرس والتأليف، وأصبح يكتفى بالمقادير الضرورية الكافية كالذي حدث في النحو من أيام ابن معطي الزواوي، واختصار ابن مرزوق لألفية ابن مالك...وهو ما نشير إليها هنا ابتداء. ذلك أن شيخ مشايخ القرن التاسع وحلقة الوصل بين الطبقات العلمية السابقة واللاحقة محمد بن أحمد بن مرزوق الحفيد (842هـ/1438م) قد ألف فيما ألف " أرجوزة " اختصر بها ألفية ابن مالك."[72]. وهو أمرٌ لم يخطر على بال من سبقه ولا من لحقه. ذلك أن شروحها مما وردت في اهتمام العلماء بها، وكذا إصلاح بعض أبياتها أو الزيادة عليها قليلا. أما اختصارها فهو أمرٌ غير مسبوق بالنسبة إلى عمل ابن مرزوق، غير أن عمله ظل طي المجهول.

ومن المختصرات مما يتشابه مع ما سبق من العرْض ما لأحمد بن القاسم البوني (1139هـ/1726م) من " نظم الأجرومية[73]. والأجرومية على صغر حجمها مما يسهل حفظه نوعا ما ، ولكن النظم كان أليق بغرض الحفظ، مع استيعاب معانيها، وأقسامها. كما نجد لخليفة بن حسن القماري (1091هـ/1679م) وهو من المتأخرين رسالة صغيرة في " نظم الأجرومية[74]. ومع اختلاف صيغ النظم عن

غيره وعدد الأبيات إلا أن غرض تقريبها من الطلبة حيث لا يتيسر لهم ذلك كان مقصدا هاما ومستمرا؛ إذ كان الكتاب نادرا لا يكاد يتوفر عليه الطلبة في كلّ الأمكنة والأزمنة.

ونختم هذا العنصر بنظم الطاهر العبيدي السابق في رسالة سماها: بغية الآمل في نظم رسالة العوامل، ورسالة العوامل للتركي البركلي في الإعراب[75].

7- نشاط النحاة الجزائريين خارج الوطن.

مع توفر عدد من المدارس العلمية بوطن الجزائر أثناء القرن التاسع وما بعده إلا أن الرحلة العلمية لم تنقطع سواء من جهة العلماء للتدريس أو الطلبة للتحصيل، كان ذلك في ربوع الوطن كما مرّ شيء منه أعلاه أو خارجه. ونريد أن نشير هنا إلى أن من ذكرنا من المشايخ لم تزل رحلتهم إلى أكثر ما رحل إليه السابقون تعلق الأمر بالأندلس أو المغرب الأقصى وتونس أو تجاوز ذلك إلى مصر والحجاز والمشرق عموما بما في ذلك مركز الدولة العثمانية.

إنّ الظروف السياسية والاقتصادية وطول المسافة المترامية، وصعوبة الاستقرار الاجتماعي لم تمنع من تجديد الرحلة إلى المشايخ والمدارس والمراكز العلمية، أداء للحق الواجب في نشر التعليم، وبث العلم في أهله، وخدمة للدين والعربية في نهاية المطاف. وكل ذلك كان بلا ريب شكلا من أشكال المساهمة في بناء الحضارة، أو على الأقل المساهمة في المحافظة على ما تبقى من أركان حضارة الإسلام.

ولا يتّسع المقال لأكثر من الإشارة العابرة إلى أشخاص معدودين كانت لهم إسهامات في حركة التعليم والتأليف خارج الوطن في فترات متوالية، عبر أكثر ربوع الوطن الإسلامي؛ من أولئك أحمد بن محمد الشهاب البجائي (860هـ/1456هـ) قال السخاوي: " أخذ عنه الأعيان من كلّ مذهب فنونا كالفقه والعربية والصرف والمنطق والعروض، وأخذتُ عنه العربية كما أخذ عنه أخي. توفي بالقاهرة."[76]. وهي عبارة تدل على تبحر الفاضل المذكور في سائر العلوم الشرعية ما اتصل بها من المعارف اللغوية، وقيامه على تدريسها، وشهادة العلماء له بذلك حتى نسب إليه تدريس جملة أعيان من ذلك القرن المشهود.

وفي حدود هذا التاريخ كان تقي الدين الشمني ممّن لازم القاهرة، كما لازم التدريس بها بعد أن انتقل إليها هو ووالده مع بداية القرن التاسع من قسنطينة كما هو مذكور في كتب التراجم[77]. وقد مرّ بنا شرح الشمني المذكور للمغني ابن هشام وهو اختصار لشرح الدماميني. ولا يخفى أن كتاب المغني لابن هشام قد حاز قبول العلماء ولم يمض على تأليفه زمن طويل، وأن الشمنيَّ كان يقوم على تدريس هذا الكتاب وعلى غيره من المقررات العلمية في عصره كالألفية والتسهيل وكلاهما لابن مالك...

وبالانتقال إلى فترات لاحقة أكثر تطاولا نجد شخصية درست بفاس وتولت التدريس بوطن الجزائر، وإليك نص عبارة سعد الله عنه " ومن أبرز الأساتذة الواردين على الجزائر من المغرب، والذين تركوا بصمات قوية في الاهتمام بعلم النحو محمد التواتي؛ فقد حلّ هذا الشيخ بقسنطينة أوائل القرن

الحادي عشر، وكان قد تخرج من فاس واشتهر بها في النحو حتى كان يلقب بسيبويه زمانه. وجلس في قسنطينة للتدريس فترة طويلة وورد عليه الطلاب من زواوة وعنابة والزيبان ونقاوس ونحوها، ومن أبرز تلاميذه محمد بن راشد الذي جاء من زواوة ليدرس عليه، فقرأ عليه كتاب (المرادي) حتى أتقنه، وبعد التخرج جلس ابن راشد للتدريس أيضا في قسنطينة فكان يدرس لطلابه كتاب التوضيح."[78]. ولا يبعد أن يكون قد قام بشيء من التدريس وهو بفاس بعد أن تم مقصوده من التحصيل للنحو وغيره، وتلك عادة المدارس العلمية الاستفادة من النبغاء، قبل أن يغيروا مكان إقامتهم بها.

ونختم هنا بذكر شخصية تختلط فيها الإفادة والاستفادة خارج الوطن وداخله، فقد تحدث المؤرخ سعد الله عن الفَلاري التونسي، بما يشير إلى التواصل العلمي بينه وبين علماء قسنطينة تحديدا، ويعكس مدى الاهتمام بالبحث العلمي وتبادل المعارف بين البلدين، فقال: " وهناك شخصية أخرى كان لها أثرٌ في تعلق قلب الفكّون بعلم النحو، وهو إبراهيم الفلاري التونسي، وإذا كان تأثير ابن راشد والتواتي عن طريق التلمذة والاحترام، فإن تأثير الفلاري كان بطريق المنافسة والتعجيز. فقد زار الفلاري قسنطينة ذات مرة، وكان علماؤها يجلُّونه، ويستقبلونه على أنه من كبار النحاة ويعقدون معه المجالس العلمية (مثل نادي يحيى بن محجوبة)، وكان الفكون يتردد على هذا النادي رغم حداثة سنّه."[79].

وهذا النص وإن لم تتم الإشارة فيه إلى خصوص الدرس النحوي إلا أن ما كان متداولا زمن الفلاري وغيره من سائر الأعيان العلمية لم يكن موضوع النحو فيه مستبعدا، تماما كموضوع الفقه؛ بل لو حاول الدارس أن يحصر معظم الجهود العلمية المتداولة في هذين الفنين لما أبعد النَّجْعة ولما خالفَ الصواب.

08 - تحصيل أسانيد الكتب النحوية.

لا نخلي هذا المقالَ من التطرق إلى الأسانيد العلمية التي سعى كثيرٌ ممن ترجمنا لأعمالهم العلمية إلى تحصيلها باعتبارها من الاهتمامات الثقافية السائدة، ومن التقاليد العريقة للمدارس الجزائرية أسوة بغيرها من مدارس المغرب والمشرق، ومن جهة ثالثة لما كان للأسانيد عن المشايخ من وظائف التثبت من سلامة نسخ المقررات الدراسية خصوصا وسائر كتب الفنون العلمية المتاحة من الزيادة أو النقص.

ونشير هنا إلى فنّ الإجازة العلمية، حيث يأذن الشيخ أو مؤلف الكتاب لغيره كتابةً برواية وتداول كتابه أو كتاب غيره في المحافل العلمية بعد أن يتمَّ عرضُ الكتاب بين الجانبين؛ والتأكد من أهلية الطرَف المجاز كان من الطلبة أو الأقران...وقد استمر اعتبار هذا وإن وقع التساهل فيه فأصبح لا

يستدعي عرض الكتاب أو قراءته على الشيخ فأصبح بمجرد الإجازة العامة لجميع مرويات الشيخ المجيز، بل وأكثر من ذلك بمجرد مراسلة من يطلب الإجازة من أصحابها. رغم بعض المعارضة اللاحقة إلا أن ذلك لم يفقده قيمته الفنية تماما بالرغم من انتشار واشتهار الكتب والمقررات العلمية بالتدريس والنسخ والطباعة حديثا.

وقد سجل سعد الله ذلك وغيره بما يشمل العلماء الجزائريين خصوصا في الأعصار الأخيرة: فعن الإجازة " إنها بتقادم العهد أصبحت لا تعني كلّ هذا؛ لتساهل المجيزين في منحها. فلم يعد هناك تحقق من المجازين في كفاءتهم ودرايتهم بالعلوم ولا من أخلاقهم وسلوكهم، كما أن الإجازة لم تعد تقيد بالقراءة والمشافهة أو حتى بالجزء المقروء من الكتاب، فقد أصبحت تمنح بالمراسلة والسماع، كما أنها أصبحت تعطى مطلقة في كل العلوم وكل الكتب التي تعلمها المجيز سواء قرأها المجاز أم لا."[80].

وقد كان هذا من ضمن الأسباب التي أدَّتْ إلى ضعف المستوى العلمي " وهذا التساهل نتج عنه ضَعفُ مستوى التعليم؛ لأنّ المجازين أصبحوا يتصدرون للتدريس ويمنحون بدورهم الإجازات لغيرهم في علوم وكتب لم يدرسوها على أحد." [81].

ونكتفي هنا بتسجيل إسنادين من باب التمثيل لا الحصر لمقرّرين علميَّين هما الأجرومية والألفية، وكتاب للمطالعة والتوسع وهو: أوضح المسالك لابن هشام الأنصاري يشرح فيه الألفية، وهو كتاب مشهور كسابقيه. فقد كانت أغلب أسانيد الجزائريين تتصل بابن مرزوق في القرن التاسع مرورا على ابن غازي (919هـ/1514م)، وسعيد المقري (حيا في 1011م/1603م)، أو تمرُّ على زكريا الأنصاري (926هـ/1520م) قرين السيوطي (911هـ/1506م) ومعاصره في القرن العاشر الهجري.

ذكر الروداني (1094هـ) في كتاب صلف الخلف - وهو ممن جمع أسانيد الجزائريين وأخذها عنه جملة من بعده - سندَه الأجرومية، فقال: وأما " الاجرُّومية لأبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجرُّوم به إلي شيخ الإسلام زكرياء عن محمد بن محمد الراعي الأندلسي عن محمد بن عبد الملك بن علي القيسي الغرناطي عن أبي جعفر بن محمد بن سالم الجُذامي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي عنه"[82]. وهو سند توفر لكثر من الطلبة والمشايخ الجزائريين، والمغاربة عموما.

ورغم كثرة الأسانيد المتصلة بابن مالك لشهرة الألفية وعموم كتبه ههنا بالجزائر والمغرب إلا أن ما نذكره هنا هو فقط ما للروداني، لاتصال سنده بكثير من الجزائريين كابن مرزوق شارح الرسالة وصاحب المختصر منها وغيره.. فقد قال يتحدث عن نفسه أما: " ألفية الإمام جمال الدين بن مالك به

إلي شيخ الإسلام زكرياء عن أبي عبد الله الرشيدي عن أبي إسحاق التنوخي عن أحمد بن محمد بن غانم الجعفري عن ناظمها، ووقعت لي هي وتسهيل الفوائد والكافية، وكلُّ تصانيفه مسلسلة بالمحمَّدين عن شيخنا العلامة محمد بن محمد بن أبي بكر المرابط الدلائي عن والده العارف بالله تعالى عن محمد بن قاسم القصار عن محمد بن عبد الرحمن اليَسِّيتي عن الإمامين محمد بن غازي، ومحمد بن محمد الخطاب والأول عن محمد ابن محمد بن مرزوق عن أبيه عن جده أبي عبد الله محمد بن مرزوق عن محمد بن أبي اليمن بن الكويك، والثاني عن والده محمد بن عبد الرحمن عن محمد بن عبد الرحمن السخاوي عن محمد بن أحمد بن عمر القرافي عن بن الكويك عن محمد بن إسماعيل بن الخباز عن محمد بن مالك." [83]. وواضح من هذا السند ما للجزائريين فيه من مرتبة عالية.

ونختم الكلام عن هذا العنصر بما للرَّوْداني المذكور من سند يتصل بسعيد المقري عن ابن مرزوق الحفيد لشرح ألفية ابن معطي، فقد قال يتحدث عن ذلك: " وبالسند إلى الشمس ابن طولون وهو يروي: تصانيف كمال الدين محمد بن محمد بن محمود البابرتي منها: شرح الهداية وشرح البزدوي وشرح المنار وشرح مشارق الأنوار وشرح ألفية ابن معطي"[84].

خاتمة:

- أن التأريخ الثقافي وإن كان لا يسمح بتسجيل نشاط النحاة الجزائريين في القرون الأولى إلا أنّ ذلك لا ينفي وجود ذلك النشاط أسوة بالمشرق والمغرب بما يشمل الأندلس، لتوفّر نفس الدواعي والظروف والحاجات الدينية.

- يدلُّ التأريخ الثقافي للمغرب الأوسط أن القرن السابع وما بعده من القرون خصوصا التاسعَ، قد شهدت نشاطا واسعا ومكثفا في ميدان الدرس النحوي، بما يشمل الموسوعات والمقررات الدراسية في المساجد والمعاهد والزوايا والجامعات...

- أن الدرس النحوي قد شمل ما يتعلق بنشاط التحصيل والتدريس والتأليف العلمي.

- أن نتاج الموضوعات النحوية كثير ومتنوع له جذوره وامتداداته من قبل الجَزولي وابن آجروم وابن معطي الزواوي إلى المقررات والرسائل الجامعية.

- أن منتج النشاط العليم للنحاة الجزائريين كثير منه مفقود أو في حكم المفقود إذ لا يزال حبيس المكتبات الخاصة مخطوطا.

- أن الاشتغال النحوي يجب أن يتوسع مستقبلا إلى المواقع الإلكترونية بجميع أشكال التبسيط المنهجي، والتوسع الأكاديمي.

المصادر والمراجع:

- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر (مؤسسة نويهض، لبنان، ط01، 1982م).
- السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (منشورات دار مكتبة الحياة – لبنان، 1985م)
- الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف (مؤسسة الرسالة، لبنان، ط01، 1985م)
- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي (دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1988م)
- عماري، عبد الله، الجهود النحوية لعلماء منطقة توات (رسالة دكتوراه جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر، 2015م)
- ابن خلدون، عبد الرحمان المقدمة (دار الشعب . القاهرة . 1969م)
- ابن مريم، محمد، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان (ديوان المطبوعات الجزائري، ط:1، 1985م)
- محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية (دار الكتب العلمية، لبنان، ط01، 2003م) .
- التنبكتي، أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الدبياج (دار الفكر، سوريا، ط:01، 1979م)
- الكتاني، عبد الحي، فهرس الفهارس والأثبات (دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط:01، 1986م)
- ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش (المؤسسة الوطنية للكتاب _ الجزائر_ ط:01 . 1982م)
- رضا كحالة، معجم المؤلفين (دار إحياء الكتاب العربي، لبنان، 1980م)
- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام (ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 02، 1994م)
- سركيس إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة (مطبعة سركيس، مصر، 1925م)
- بوعزيز، يحي، أعلام الفكر والثقافة (دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط:02، 1999م)
- الحاج سعيد، الحاج بن بكير، تاريخ بني مزاب (المطبعة العربية، الجزائر، ط:01، 2017م).
- بوعناني، مختار، المصنفات اللغوية (دار هومة، الجزائر، ط:01، 2000م)
- الزركلي، خير الدين، الأعلام (دار العلم للملايين، لبنان، 2002م)
- بلقاسم ضيف، فهرست معلمة التراث الجزائري (نشر تالة، العاصمة، ط:01، 2011م)
- العياشي، أبو سالم، الرحلة العياشية (دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط:01، 2006م)
- سيدي عمر، عبد العزيز، قطف الزهرات من علماء توات (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م).
- المهدي، بن شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر(مطبعة قسنطينة، 1965م)

- الروداني، سليمان، صلة الخلف بموصول السلف (دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط:01، 1994م).

الهوامش:

[1] - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر (مؤسسة نويهض، لبنان، ط01، 1982م)/ 37، الضوء اللامع 72/3.

[2] - شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (منشورات دار مكتبة الحياة – لبنان، 1985م) ج1/ 123.

[3] - معجم أعلام الجزائر: 229، الضوء اللامع 72/10، البدر الطالع 232/2.

[4] - معجم أعلام الجزائر. / 230.

[5] - عبد الله عماري، الجهود النحوية لعلماء منطقة توات (رسالة دكتوراه جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر، 2015م) / 18.

[6] - الجهود النحوية. ص: 26.

[7] - الجهود النحوية .ص: 18.

[8] - الجهود النحوية .ص: 82.

[9] - معجم أعلام الجزائر: 335، تعريف الخلف 336/2، نهضة الجزائر الحديثة 56/1.

[10] - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ج 1/ 90.

[11] - معجم أعلام الجزائر 343، تعريف الخلف 199، الإعلام بمن حل مراكش 147/4،

[12] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1988م) ج 1/ 350.

[13] - تاريخ الجزائر الثقافي ج 1/ 351.

[14] - الجهود النحوية ص: 37.

[15] - مقدمة، عبد الرحمان ابن خلدون (دار الشعب . القاهرة . 1969م) (1/ 734)

[16] - تاريخ الجزائر الثقافي 8/ 45.

[17] - تاريخ الجزائر الثقافي ج 7/ 445.

[18] - تاريخ الجزائر الثقافي. ج 7/ 74.

[19] - الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام 16/2، معجم أعلام الجزائر 269.

[20] - معجم أعلام الجزائر 291،

[21] - معجم أعلام الجزائر 291،

[22] - فهرس دار الكتب الوطنية التونسية. ج 72/1، مخطوط رقم: 350.

[23] - توجد منها نسخة من كلمن هما عند ضيف بلقاسم: 336.

[24] - معجم أعلام الجزائر 269، البستان 253، شجرة النور الزكية 274، نيل الابتهاج 330، فهرس الفهارس 12/2.

[25] - الجهود النحوية لعلماء توات. ص: 25.

[26] - رحلة ابن حمادوش: 139، تعريف الخلف 142/2، معجم أعلام الجزائر 345.

[27] - رحلة بن حمادوش، ابن حمادوش (المؤسسة الوطنية للكتاب _ الجزائر_ ط:01 . 1982م)/ 268.

[28] - رحلة ابن حمادوش 299، بلقاسم 335.

[29] - معجم المؤلفين 83/10، نسخة منه بمكتبة الشيخ محمد بن عزوز القاسمي.

[30] - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام (ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 02، 1994م) ج580/03.

[31] - معجم المطبوعات العربية 289/1، وعنوانه: التقريب لأصول التعريب.

[32] - معجم المطبوعات العربية. ج 289/1.

[33] - أعلام الفكر والثقافة ليحي بوعزيز (دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط:02، 1999م) ج 313/1.

[34] - فهرست معلمة التراث الجزائري، بلقاسم ضيف (نشر تالة، العاصمة، ط:01، 2011م) / 335.

[35] - وله أعمال أخرى أكثرها مطبوع بسوريا، بلقاسم ضيف 340.

[36] - طبع بديوان المطبوعات الجزائرية.

[37] - تاريخ بني مزاب، يوسف بن بكير الحاج سعيد (المطبعة العربية، الجزائر، ط:01، 2017م) / 94، وذكر بلقاسم ضيف أنه طبع بتونس 13331هـ

[38] - معجم أعلام الجزائر. ص: 50.

[39] - فهرست بلقاسم ضيف: 333.

[40] - فهرست بلقاسم ضيف: 333.

[41] - تاريخ الجزائر العام 580/3].

[42] - نهضة الجزائر الحديثة 285/1. معجم أعلام الجزائر (ص: 15)

[43] - المصنفات اللغوية، مختار بوعناني (دار هومة، الجزائر، ط:01، 2000م) / 104.

[44] - خير الدين الزركلي، الأعلام (دار العلم للملايين، لبنان، 2002م) ج 225/1. فهرست بلقاسم ضيف. / 324.

[45] - البدر الطالع، للشوكاني. 72/1.

[46] - الجهود النحوية. 26.

[47] - الإعلام بمن حلّ مراكش... 16/2، معجم أعلام الجزائر 269.

[48] - فهرس الفهارس 1/ 394، معجم أعلام الجزائر 291، البستان 201، تاريخ الجزائر العام 210/2.

[49] - الأزهرية 122/4، معجم أعلام الجزائر 309.

[50] - الضوء اللامع 10/1، معجم أعلام الجزائر 160.

[51] - معجم أعلام الجزائر (ص: 230)

[52] - المكتبة الوطنية بتونس رقم 2556.

[53] - البستان، لابن مريم التلمساني. 237.

[54] - معجم أعلام الجزائر (ص: 254)،

[55] - الرحلة العياشية، أبو سالم العياشي (دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط:01، 2006م) 390/2. دار الكتب التونسية، 83/1، رقم المخطوط: 406.

[56] - محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية (دار الكتب العلمية، لبنان، ط01، 2003م) ج 1/ 448.

[57] - فهرست بلقاسم ضيف: 333.

[58] - رضا كحالة، معجم المؤلفين (دار إحياء الكتاب العربي، لبنان، 1980م) ج83/10،

[59] - شجرة النور الزكية. 382.

[60] - نهضة الجزائر الحديثة 285/1. معجم أعلام الجزائر: 15.

[61] - المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم: 2231.

[62] - قطف الزهرات من علماء توات. عبد العزيز سيدي عمر (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م) ص: 11.

[63]- المهدي بن شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر(مطبعة قسنطينة، 1965م): 328،فهرست بلقاسم ضيف 336.

[64] - مطبوع عام 1907م بالجزائر العاصمة، وبهامشه نزهة الطرف. معجم أعلام الجزائر 287، بلقاسم ضيف 337.

[65] - مطبوع بقسنطينة، معجم أعلام الجزائر 287، بلقاسم ضيف 337.

[66] - المطبعة البونية 1894م. معجم أعلام الجزائر 287، بلقاسم ضيف 337.

[67] - مطبوع ببونة. معجم أعلام الجزائر 287، بلقاسم ضيف 337، المصنفات اللغوية 75.

[68] - طبع طبعة حجرية بالجزائر العاصمة. معجم أعلام الجزائر 287، بلقاسم ضيف 337.

[69] - مطبوع عام 1907م بالجزائر العاصمة، وبهامشه نزهة الطرف. معجم أعلام الجزائر 287، بلقاسم ضيف 337.

[70] - بلقاسم ضيف: 337.

[71] - تاريخ الجزائر الثقافي ج 8/ 45.

[72] - معجم أعلام الجزائر 291،

[73] - فهرست بلقاسم ضيف، 325.

[74] - تاريخ الجزائر الثقافي 2/ 162، فهرست بلقاسم ضيف: 325.

[75] - بلقاسم 336، راجع ما ذكر منه أنه قد نشره ابن زوين الكتبي بأولاد جلال.

[76] - الضوء اللامع 2/ 180و 260، معجم أعلام الجزائر 34.

[77] - الضوء اللامع ، معجم أعلام الجزائر

[78] - تاريخ الجزائر الثقافي. ج 2/ 158.

[79] - تاريخ الجزائر الثقافي. ج 2/ 159.

[80] - تاريخ الجزائر الثقافي. ج2/ 39.

[81] - تاريخ الجزائر الثقافي. ج 2/ 39.

[82] - صلة الخلف بموصول السلف، سليمان الروداني (دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط:01، 1994م)/ 204.

[83] - صلة الخلف بموصول السلف. / 120.

[84] - صلة الخلف بموصول السلف. / 188.